



من مناهج البحث اللغوي:
المنهج الجغرافي (أو الجغرافيا اللغوية)

Among the Linguistic Research Methods:
Geographical Approach (or Linguistic Geography)

بن صحراوي بن يحيى¹

مخبر الخطاب الحجاجي

¹ جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر)، miloud.azzouz@univ-tiaret.dz

ملخص:

تعدّ الدّراسة الجغرافية اللّغوية الحديثة من أحدث وسائل البحث في علم اللّغة بل صارت فرعاً من فروعها، أطلق عليه الباحثون "المنهج الجغرافي" أو "الجغرافيا اللّغوية" أو "علم اللّهجات". وهو منهج بكر في جانبه النظري لا التّطبيقي، حيث لا يزال يحتاج إلى مزيد من الدّراسة التي تتناول قضاياها، ومباحثه، وأصوله رغم توسّع مجالات توظيفه في التّراث اللّغوي. في مسعى التّعريف بهذا المنهج أحاول من خلال هذه الورقة البحثية توضيح حدوده المنهجية والمعرفية كما رسمها اللسانيون، والمهتمون بشأن المناهج اللّغوية، فأبين موضوعاته وميادينه، وأتبع مساره التّطوريّ بداية من ميلاده، وأقتفي بعض آثاره في الدّراسات اللسانية الغربيّة، وفي التّراث اللّغويّ العربيّ موضحاً كذلك أهميته البالغة في حقل الدّراسات اللّغوية، شأنه شأن الأطالس اللّغوية، وأخيراً أضفي على هذا البحث مزيداً من الإجرائية والتّطبيق من خلال قراءة تطبيقية لأمثلة من المنجز اللّغويّ العربيّ في ضوء المنهج الجغرافي. كلمات مفتاحية: البحث اللّغويّ؛ المنهج الجغرافي؛ الجغرافيا اللّغوية؛ علم اللّهجات؛ الديالكتولوجيا؛ الأطالس اللّغوية؛ اللسانيات..

Summary:

The modern geo-linguistic study is one of the newest means of research in linguistics, and has even become one of its branches. The researchers called it "geographical method", "linguistic geography" or "dialectology".

This method is novel in its theoretical aspect, as opposed to its practical application, and it still requires further study that addresses its issues, topics, and foundations, despite the expanded fields of its application in linguistic heritage. In an effort to introduce this method, I aim through this research paper to clarify its methodological and epistemological boundaries as outlined by linguists and those interested in linguistic approaches. I will explain its subjects and fields, trace its developmental path from its inception, and follow some of its impacts in Western linguistic studies as well as in Arabic linguistic heritage, highlighting its significant importance in the field of linguistic studies, akin to linguistic atlases. Finally, I will enhance this research with more procedural and practical application through an applied reading of examples from Arabic linguistic achievements in light of the geographical method.

Keywords: linguistic research; geographic method; linguistic geography; dialectology; linguistic atlases; linguistics

1. مقدمة :

إنّ الحدود بين العلوم هي حدود وهمية، وفي هذا الشأن نقرّ بوثاقة الصلّة بين علم اللّغة وعلوم أخرى، فقد اقتبس علم اللّغة منذ أكثر من نصف قرن طرائق علم الجغرافيا ليضع ويدرس الحدود اللّغويّة للهجات المختلفة في خرائط تبين معالم كلّ لهجة وما تختلف به عن لهجة أخرى في منطقة أخرى.

وتعدّ الدّراسة الجغرافيّة اللّغويّة من أحدث وسائل البحث في علم اللّغة بل صارت فرعاً من فروعه، أطلق عليه الباحثون "الجغرافيا اللّغويّة" أو "المنهج الجغرافي" أو "علم اللّهجات". وهو منهج بكرّ في جانبه النظريّ لا التّطبيقيّ حيث لا يزال يحتاج إلى مزيد من الدّراسة التي تتناول قضاياها، ومباحثه، وأصوله رغم توسّع مجالات توظيفه في التّراث اللّغويّ.

وورقتي البحثيّة هاته لا تتعد عن هذا المسعى، حيث من خلالها أحاول رسم الحدود المنهجية والمعرفية لهذا الفرع اللّسانيّ الجديد ببيان موضوعاته وميادينه، وأتبع مساره التّطوريّ بداية من ميلاده، وأقتفي بعض آثاره في الدّراسات اللّسانيّة الغربيّة، وفي التّراث اللّغويّ العربيّ موضّحاً أهميته البالغة في حقل الدّراسات اللّغويّة، شأنه شأن الأطالس

اللغوية، وأخيراً أضفي على هذا البحث مزيداً من الإجرائية والتطبيق من خلال قراءة تطبيقية في ضوء المنهج الجغرافي.

2. أهمية الدراسة:

تندرج هاته الورقة ضمن الدراسات البيئية التي تبرز ضرورة التكامل المعرفي، والمنهجي بين العلوم لاسيما بين علم الجغرافيا واللسانيات؛ حتى لا تكاد تقف عند الحدود الوهمية بينهما، وليس هذا وحسب، بل كذلك عند انتظامهما ليشكلا حقلاً لسانياً جديداً يسمى "الجغرافيا اللغوية". وإذ نتحدث هنا عن صلة اللسانيات بعلم آخر، هو "الجغرافيا"، فقد اقتبست اللسانيات منذ أكثر من نصف قرن مضى، طرق علم الجغرافيا، ليضع حدوداً لغوية للهجات المختلفة في خرائط تبين معالم كل لهجة، وتفرق بين لهجة وأخرى، ولا تختلف هذه الخرائط عن خرائط الجغرافيا؛ إلا في أنّ ما يدون عليها من ظواهر لغوية تُطلع القارئ على أدق الفروق في الأصوات والمفردات، بين اللغات المختلفة واللهجات المتباينة.

3. ميلاد المنهج الجغرافي (المستويات الخلفية):

بدأ الاهتمام بدراسة اللغة وأشكالياتها المعقدة من خلال التنوعات الجغرافية بشكل واضح لدى شعوب قديمة كالهنود والإغريق ثم العرب؛ قبل ظهور المنهج الجغرافي منذ العصر الوسيط في أوروبا، ليبلغ ذروته بعد قرون من الممارسة الميدانية في أوروبا بوجه خاص على يد النحاة الشبان في ألمانيا مع بداية الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.¹ إنّ هذه الجماعة الشبانية غالت فيما أسمته بالقياسية المطلقة للقوانين الصوتية، ولذلك لم يمض وقتٌ قصير من عمر نشاطهم حتى كانت ردود أفعال سريعة من قبل أحد اللسانيين الألمان والمؤرخين للغات الرومانية، وهو هيجو شوخاردت (1842-1927م) الذي نشر عام 1885م مؤلفاً حول القوانين الصوتية حيث حاول أن يبرهن فيه بأن القوانين التي تسهر على التطور في اللغة ليست ذات طابع منتظم، بل بالعكس كل تطور صوتي له طابع غير متجانس Hétérogène تبعاً للموقع الجغرافي الذي تتكلم فيه اللغة.² انطلاقاً من هذا ألح شوخاردت على الأهمية التي يجب أن نولمها بوجه خاص إلى الاعتبارات الجغرافية ملتحقاً هكذا بنظريات اللغوي الألماني الشهير جوهان شميدت (1843-1901م)

صاحب نظرية الأمواج Théori des ondes التي أبان عنها عام 1877م في كتابه "علاقات القربى"³.

إنّ كلاً من شوخاردت وشميدت يذهب إلى أنّ كلّ جديد لسانيّ يظهر في لغة كان يتدفّق انطلاقاً من موطن هذه اللغة بين اللّغات الأخرى التي كان لها أرض مجاورة على شكل (موجات)، وكلّ ابتكار كان ينطلق من مركز مختلف بغية الإفضاء إلى أكبر عدد من اللّغات تقريباً، ودون أن تغطّي مجالات هذه الابتكارات تماماً، ومن الممكن تصوّر انتشار اللّغات في مجالات جغرافيّة كانتشار موجة حين تقذفها بحجرة.⁴

وبعد ظهور فكرة شوخاردت هذه لقيت أصداء علميّة إيجابيّة خارج ألمانيا نفسها، وهكذا بدأت الأبحاث في اللّسانيات الجغرافيّة، وبخاصّة على يد الإيطالي بورناردينو تنمو وتتشعب من خلال الاقتناع بأنّ اللغة الإنسانيّة غير متجانسة، وهذا ما حاول أن ينهض به في فرنسا أيضاً جان بيير روسلو (1846-1924م) بطريقة علميّة تؤكّد نظرية شوخاردت؛ بتطبيق ميداني بيانه أنّ الأعضاء الذين يشكّلون مجموعة سكانيّة واحدة لهم أداءات للنطق متباينة من جيل إلى آخر، وهذه الفوارق في النطق يمكن أن تظهر كذلك بين الأعضاء لعائلة تنتمي إلى أجيال عديدة.⁵

إنّ سرعة احتفاء تكلّمات محلية Des parlers Locaux في أوروبا الغربيّة، واستحالة إقامة الدّراسات الأحادية أو تلك التي تتعلّق بموضوع واحد؛ حتّى تكون دراستها وافية في الوقت الذي كان يجب فيه، كلّ ذلك انجرّ عنه ميلاد علم اللّهجات أو المنهج الجغرافي.⁶

وسبقت الإشارة إلى جان بيير روسلو الذي يعدّ الرّائد لعلم اللّهجات الفرنسيّ، لقد أثبت ملاحظات شوخاردت الألماني بشأن نحو اللغة مناحٍ غير متجانسة؛ وذلك بصورة علميّة، كما أسّس الرّجل مع نظيره جيليرون في حدود عام 1887م مجلّة اللّهجات الغالية-الرّومانية، وفي المدّة نفسها تقريباً كان كليدة يصدر مجلّة اللّهجات المحليّة "Les patois" التي تغيّر عنوانها بعد سنتين ليصبح مجلّة الفقلغة الفرنسيّة (أو فقه اللغة الفرنسيّ). لكن أهمّ حدث لا يقلّ شأنًا من ظهور علم اللّهجات نفسه كمادّة لسانيّة مستقلّة لها أصولها، ومناهجها هو شروع جيل جيليرون في تدريس علم اللّهجات في مدرسة الدّراسات العليا منذ عام 1883م.

نعتبر هذا الاعتراف البيداغوجي بتدريس هذه المادة في البداية المفيدة لاستواء علم اللّهجات (أو المنهج الجغرافي)، ولهذا فلم يعد لنا مانع من أن نؤرّخ ظهور علم اللّهجات بوصفه مادة لسانية جغرافية أو دياكتولوجية بحلول الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، وليس لدينا شكّ مطلق من القول بأنّ هذه المادة ظهرت في أكثر من بلد، ونعني بهذا على - وجه الخصوص - كلاً من فرنسا وألمانيا، على أن نرجّح ألمانيا مسقطاً لرأس هذه المادة مثلما كان نفس البلد أعمدة خلفية لنضجها، وتطوّرها، وتبلورها جنساً لسانياً مستقلاً في حقله ومنهجه.⁷

4. التعريف بالمنهج الجغرافي:

1.4 المنهج الجغرافي وميدانه:

يرى صالح بلعيد أنّ المنهج الجغرافي يعني بتحليل ووصف التّنوعات المحليّة أو الاجتماعية أو الزّمانية للغة معيّنة؛ مبيّناً كيف تختلف هذه التّنوعات في النطق أو في القواعد أو في المعاجم، وكيف تتوزّع هذه التّنوعات الجغرافية. إنّه يصف بطريقة علميّة وموضوعيّة توزيع اللّهجات في مناطق العالم المختلفة ليوضّح أهمّيّتها السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والاستراتيجيّة، ويدرس كذلك طرائق تفاعل اللّغات بعضها مع بعض، وكيفية تأثير العلم اللغويّ على تطوّر الثقافة والفكر الوطنيّين.⁸

وفي محاولة لعبد الجليل مرتاض لإزالة اللبس الحاصل بين علم اللّهجات (أو المنهج الجغرافي)، واللّسانيات الجغرافية يذكر تمييزاً منهجياً لأندري مارتيني مفاده أنّ اللّسانيات الجغرافية هي كلّ ما يعثر عليه في أيّ فضاء من تواصلات لسانية يمكن نقل أو تسجيل وقائعها المتكوّنة من كلّ الأنظمة، والأصناف على خرائط تمثّل مواقع جغرافية. بينما الدياكتولوجيا (علم اللّهجات) من جهتها تفهم:

1- مثل دراسة مقارنة لأنظمة تمثّل محلياً كلّ لغة.

2- من التّادر كوصف لتكلمات محليّة دون الإحالة على التكلمات المجاورة لها.⁹

وإذا ما تصفّحنا كتاب دي سوسير "محاضرات في اللّسانيات العامّة" في جزئه الرّابع نجده لا يتردّد في تسمية علم اللّهجات باللّسانيات الجغرافية معالجاً ذلك تحت العناصر الآتية:¹⁰

- تنوع اللغات.
- تعاصر لغات عديدة في موقع واحد.
- بواعث التنوع الجغرافي.
- انتشار الموجات اللسانية المستوحاة من نظرية الأمواج لجوهان شميدت.
- ونجد كلاً من تودوروف ودكرو في معجمهما الموسوعي "في علوم اللغة" يذكر أن أهمّ التّصوّرات الأساسيّة التي تعالج بالمنهج الجغرافي، ملخّصين إيّاها في ستّة أصناف:¹¹

- 1- اللهجة الفردية (Idiolecte)
- 2- لهجة أو لهجة إقليمية أو محلية (Dialect ou patois)
- 3- لغة وطنية (Langue nationale)
- 4- أرغة، طانة (Jargon)
- 5- لغات مزيجية (Mélanges de langues)
- 6- تعدد اللغات (Multilinguisme)

والواضح أنّ التعريفات التي ذكرناها تقوم بشدّة على العوامل الجغرافية، واللغة في ضوء المنهج الجغرافي لا ينظر إليها من خلال استعمالها على أنّها شكل أحادي، بل على العكس من ذلك تماماً ما دامت أنظمة متنوّعة تبعاً لفوارق اجتماعية، وعوامل أخرى.

2.4 المنهج الجغرافي والأطالس اللغوية:

تعدّ الدراسات الجغرافية من أحدث وسائل البحث في علم اللغة، ولها وظيفة ذات أثر بالغ في الدراسات اللغوية الحديثة لأنّها تسجّل الواقع اللغويّ للّهجات على خرائط يجمعها آخر الأمر أطلس لغويّ عامّ، يمكن الباحث من رصد الظواهر اللغوية المختلفة في مختلف المناطق وأثر ذلك في المناطق الأخرى، وهي الأسباب الداعية لذلك.

لقد كان إعداد الأطالس اللغوية أسبق في الوجود من معظم الإنجازات الوصفية الحديثة،¹² وبدون سابق تحقّظ للأعمال الديالكتولوجية الجلييلة التي ظهرت على أيدي لسانيين ثوريين بعد منتصف القرن التاسع عشر بشكل خاصّ، فإنّه ليتمكن القول بأنّ ميلاد الأطالس اللغوية الجغرافية لاسيما أطلس ونكر الألماني، وبشكل خاصّ الأطلس اللساني الجغرافي للفرنسيين إدموند وجيلبرون (1902-1910م) الذي لا يخلو من صفة الحدث الذي أضفى على الدرس اللغوي منهجاً جديداً يعيد الاعتبار لما ظلّ مسكوتاً عنه في

حياة اللغة الإنسانية.¹³ واثراً صناعة هذه الأطالس أضحت المفهوم الديالكتولوجي يتضح أكثر بالنسبة لما يقابله من مصطلحات متعارضة معه مثل: اللغة الرسمية أو الوطنية أو الأدبية مثلاً.¹⁴

إن الأطالس اللغوية حاولت أن تحدّد إقليمياً ضيقاً أو واسعاً للتموضعات اللهجية المعتمدة شعبياً أو تاريخياً ووفق تنوعاتها، إلا أنّ هذه الأطالس ليكسيكية أكثر ممّا هي مورفولوجية أو سانتكسية أو حتى فونولوجية أو صوتية، لأنّ ما بقي جلياً من اللهجات من المحلية أو المحكية محلياً أقلّ بكثير ممّا اختلفت من عناصرها الأساسية لكن السمات اللهجية الثابتة غالباً ما تنبئُ بخاصية الظواهر، وسعتها أو تقويتها، ولكن هذه السمات لن تحقّق إلاّ بعاملين: جغرافي، ولساني. فبفضل هاذين العاملين تستطيع اليوم مثلاً بناء نماذج شاملة للهجات العربية.

إنّ هذه الأطالس منذ أن أنشئت حاولت أن تضع في جلاء الحدود اللهجية؛ راسمة خطأً تصوّرياً مفرّقاً بين منطقتين أو مجالين لهجيين؛ يهبان سمة لسانية معطاة أشكالاً أو أنظمة مختلفة، أمّا مجموع ما تشابه من اللغات أو تماثل خطياً فإنّه أصبح يسمّى "حزمة الحدود" Faisceau D'isoglosses وهي مجموعة صفات لغوية مشتركة.¹⁵

5. المنهج الجغرافي في الدراسات اللسانية الغربية:

إنّ الجهود اللغوية التي أومأنا إليها في معرض حديثنا عن ميلاد المنهج الجغرافي لا تعني أنّ كلّ شيء قد أنجز في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، بل كان علينا أن ننتظر بداية القرن العشرين حتى يفقد المنهج الجغرافي كلّ اتصال مع اللسانيات النظرية.

إنّ الفصل الذي كرّسه بلومفيلد لهذه المادة ينكشف انفصاله بكلّ غرابة عن باقي الكتاب، ولنضيف إلى هذا - فضلاً عمّا جاء به آخرون - بأنّ الاكتشافات الأكثر ضماناً والأكثر جدّة لعلم اللهجات كأعمال قوشا (1905م) مثلاً لم تكن تتطابق مطلقاً مع فكر النحاة الجدد، وواجب أن ننتظر الخمسينات لتبيّن لنا أعمال مارتيني (1955م)، وأعمال مولتن (1962م)، وكذا ونرش (1954م) من جديد القوّة النظرية لـ "لسانيات الميدان".¹⁶

إنّنا لا نجهل أنّ قوستان باريس وبول مي الفرنسيين كانا يحثّان ويشجّعان على دراسة التكلّمات المحلية دراسة وصفية على غرار منهج العلوم الطبيعية، ولا نجهل أنّ

هؤلاء كانوا يفكرون في العثور على عناصر ثمينة بغية معرفة أفضل وإدراك أقرب لتاريخ اللسانيات في الحقل الروماني، في حين كان أسكولي يقاسم الفرنسيين هذه الرؤية في إيطاليا¹⁷، وبذلك أصبحت الأفاق المستقبلية منذ تلك الأونة تتجه في كل مكان نحو اعتبار علم اللهجات مكملاً أساسياً للسانيات التاريخية.

وقبل أن يعترض شوخاردت على حتمية النحاة الجدد إزاء القوانين الصوتية كان لوسكيان (1876م) يصوغ هذه الحتمية نفسها، وفي الفترة نفسها عمل جورج ونكر على إرسال أسئلة إلى المدرسين في Rhénanie تحتوي على أربعين جملة صغيرة مؤلفة من حوالي ثلاث مئة كلمة، ويُعتبر هذا الأخير صاحب أول فكرة لعرض التكمّات اللهجية وفوارق نطقها بمساعدة خرائط جغرافية¹⁸. وفي هذا الشأن لا نغفل دور الأطالس اللغوية - الذي أشرنا إليه عرضاً- في توجيه المنهج الجغرافي نحو الارتقاء إلى مستوى لساني علمي ميداني.

6. تجليات المنهج الجغرافي في التراث اللغوي العربي:

وهمّ ما قبله ولا بعده وهمّ أن يزعم باحث اليوم أو غداً بأنه باستطاعته أن يقتفي كلّ الآثار اللسانية الجغرافية في التراث العربي برمته، خاصة وأننا لا نكاد نفحص كتاباً من هذه الكتب إلا وقد لاحظنا فيه بعضاً من هذه المظاهر أو ما يقرب منها¹⁹، ومما لاشكّ فيه أنّ الإحساس العربي بالتباينات اللغوية، وانتشار الأمراض اللغوية (العيوب الصوتية)، ووجود الانقسامات اللهجية كلّها تمثل المستويات الخلفية لزوع الدراسات اللغوية العربية إلى اعتماد المنهج الجغرافي ميدانياً²⁰، ومن ذلك نذكر الكتب القديمة المتقدمة مثل "طبقات فحول الشعراء" لابن سلام الجمحي (ت232هـ)، فهو علاوة على إirاده عرضاً لبعض التراكيب اللغوية التي لمّح إليها جغرافياً، نراه يوزّع الشعر العربي على مستوى القبائل انطلاقاً من منطقة ربيعة، مروراً بمنطقة قيس، وانتهاءً إلى تميم، وهذا التقسيم لا يمتّ بصلة إلى أنساب الشعراء بقدر ما يرتبط بالمنطقة الجغرافية وإلا فإنّ إمرأ القيس (ت450م)، وهو المجمع على إمارته الشعرية لا يمتّ بصلة إلى هذه المناطق حسباً على الرّغم مثلاً من أنّ المهلهل (ت531م) خاله، بل لغةً فقط. ولم لا نقول: إنه وزّع جانباً من هذه المدونة الشعرية، ولا سيّما ما يتعلّق بالجاهليين المخضرمين توزيعاً جغرافياً واضحاً: طبقات الجاهليين، شعراء القرى، شعراء مكّة، شعراء الطائف، شعراء البحرين...؟²¹

وهناك كتب نقدية، وأدبية أخرى مثل "الموشح" للمزرباني (ت384هـ)، يذكر فيه ظواهر لهجية غزيرة في جميع المستويات، ولكن الرجل لا يعدو أن يجتزئ بالتأويل والتخريج لها تارة، والنقد والتجريح تارة أخرى، مع أنها مستويات لهجية معروفة، ومنسوبة لقبائل أو مناطق جغرافية بعينها مثل: قصر الممدود، ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف... إلخ.

أما كتب اللغة القديمة الأصيلة فيعدّ كتاب سيبويه (ت180هـ) بدءاً، وما والاه من أبحاث لغوية، مثل "الإبدال" لابن السكيت (ت244هـ) وغيره، وحتى كتب التّراجم والطّبقات لم يخلُ كلّها تماماً من هذه الظواهر الديالكتولوجية عَرَضاً في كثير من المناسبات، مثل "طبقات التّحويين واللّغويين" لأبي بكر الزبيدي (ت379هـ)، و"نور القبس" للمزرباني (ت384هـ)، ناهيك عن كتب، ورسائل لغوية، ومعاجم متقدّمة ومتأخّرة.

ولعلّ ما سبّي في الدّراسات القرآنية القديمة بـ "غريب القرآن" لم يكن أقلّ التفاتاً إلى الظواهر اللّهجية الجغرافية التي كثيراً ما كانت لهم موثلاً، مثال هذا تفسير عبد الله بن يحيى بن مبارك اليزيدي (ت237هـ) قوله تعالى: ﴿...إِنِّي بَرَاءٌ...﴾²² حيث قال: «البراء والخلاء لا يجمعان ولا يؤنثان لأنهما مصدران مجازهما بلغة العلوية، يجعلون الواحد والاثنين والثلاثة من الذّكر والأنثى على لفظ واحد، وأهل نجد يقول: أنا بريء، وهي بريئة، ونحن براء للجميع»²³ أو كتفسيره "هيت لك" بأنّها تعني في لهجة حوران: تعال.²⁴ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ): «كان الكسائي يحكي هذه القراءة، يعني: ﴿...هَيْتَ لَكَ...﴾»²⁵ ويقول: هي لغة لأهل حوران، وقعت إلى أهل الحجاز، معناها: تعال.²⁶ وقال أبو عبيد: «سألت شيخاً عالماً من أهل حوران؛ فذكر أنّها لغتهم يعرفها»²⁷.

واختلاف المصاحف جغرافياً ضرب من الجهود التي اعتمدت المنهج الجغرافي، وممّا أُلّف فيه نذكر:

-كتاب "اختلاف مصاحف الشّام والحجاز والعراق" لابن عامر اليحصبي (ت118هـ).

-كتاب "اختلاف مصاحف المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة" للكسائي (ت189هـ).

-كتاب "اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشّام في المصاحف" للفرّاء (ت207هـ).

-كتاب "اختلاف المصاحف" للسّجستاني (ت275هـ).²⁸

واختلاف القراءات القرآنية وتوزيع القراء جغرافياً هو ضرب آخر يؤكد ورود المنهج الجغرافي في التراث اللغوي العربي.

في معرض إجابته عن السؤال: تحت أي منهج درس العرب لغتهم؟ يستدلّ عبد القادر شاكر برأي عبده الراجحي الذي يعلّل أنّ العرب عند جمعهم للمادة اللغوية في مرحلة التأليف قد اعتمدوا على منهج واقعي واضح، فقد حدّدوا البيئة التي يصحّ أخذ اللغة عنها أو منها، وذلك بأن حصروها في المناطق البادية، مثل شبه الجزيرة العربية، كما حدّدوا الفترة الزمانية بالقرن الثالث لأهل الوبر، والقرن الثاني لأهل الحضر، وهذان الشرطان لا تجدهما إلا في المنهج الوصفي الذي يعتمد الزمان، والمكان، ثم النصّ.²⁹ من خلال تحليلنا لهذا الرأي نجد ملامح المنهج الجغرافي تبدو جلية ذلك أنّ المنهج الجغرافي هو منهج واقعي بحث، أو بالأحرى منهج وصفي، يعدّ المكان أبرز محاوره.

6. قراءة تطبيقية في ضوء المنهج الجغرافي:

1.6 في المستوى الصوتي:

ذكر أنّ المرّار الفقعسي قال:

وأما لهنك من تذكر أهلها *** لعل شفا يأس وإن لم تئس.

وقال غيره:

لهنّ الذي كلّفتني ليسيير.

وقال آخر:

لهنك في الدنيا لباقية العمر.

وفي وحدة "لهنّ" أبدل الشعراء الثلاثة الهاء من الهمزة، ويرى اللغويون أنّ هذا الإبدال الصوتي ما كان ليحدث لولا قرب مخرج الهاء من الهمزة، مثلما قالوا أرقت، وهرقت، وأنرت الثوب وهنرت، وأرحت الدابة وهرجتها. والواقع أنّ أصوات الحلق كلّها متقاربة، وأقرب صوت مخرجاً إلى الهمزة هو العين، ومن العرب من يبذل هذا بذلك، ومنهم من يبذل ذلك بهذا، والمسألة تتعلّق أصلاً بظاهرة لسانية جغرافية أكثر ممّا تتصل بقياس مطرد وشاذ.³⁰ وقد ورد في اللسان أنّ تميمياً وأسداً وقيساً ومن حاذاهم يجعلون ألف (أن) إذا كانت مفتوحة عيناً، فقد جاء فيه أيضاً: أنشدتني (القائل هو المرّار الفقعسي) أعرابية من بني كلاب:

فنعلمنَّ وإن هويتك عنّي *** قطاع أرمام الحبال صروم

فقلت لها: ما هذا؟ فقالت: هذه عنّتنا.³¹ ومعلوم أنّ قول الأعرابية: هذه عنّتنا، تفيد بأنّها كانت تميمية؛ لأنّ هذه العنينة منسوبة في أكثر من مصدر إلى بني تميم.

وأنشد المفضل أبو الغول لبعض أهل اليمن:

أي قلوب راكب تراها *** طاروا عليهم فشل علاها.

واشدد بمتني حقب حقواها *** ناجية وناجيا أباهها.

ومما جاء في شرح "علاها" أنّ المتكلم أراد أن يقول: عليها، وهذه اللهجة متفشية في بني الحارث بن كعب؛ لأنّ لهجتهم "قلب اليباء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفاً"، ويقولون: أخذت الدرهمان، واشترت ثوبان، والسّلام علاكم، وهذه الأبيات على لغتهم.³²

2.6 في المستوى النّحوي:

مما قاله شاعر من بكر بن وائل:

وجدنا آل مرة حين خفنا *** جريرتنا هم الأنف الكراما

اجتزأ أبو حاتم بالقول: "وقوله هم الأنف جعل هم صلة للكلام، وفي القرآن: ﴿...تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا...﴾،³³ ومن فصحاء العرب من يرفع الأنف الكرام، يجعل هم مبتدأ، أو هذا خبراً لمبتدأ.

وذكر سيبويه (ت180هـ) أن أبا عمرو بن العلاء (ت154هـ) كان يقول: "إن كان لهو العاقل" ولذلك لا عجب إذا كان هذا الأخير يضعف قول ابن مروان الذي قرأ "هُنَّ أَطَهْرَ" بالنصب في قوله تعالى: ﴿... قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطَهْرُ لَكُمْ...﴾.³⁴ ويقول: احتبى ابن مروان في لحنه، وعن أبي عمرو بن الورد: من قرأ "هُنَّ أَطَهْرَ" بالنصب فقد تربّع في لحنه، وذلك أنّ انتصابه على أن يجعل حالاً، فقد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل، كقوله تعالى: ﴿... هَذَا بَعْلي شَيْخاً...﴾³⁵، أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر، كأنه قيل: خذوا هؤلاء،³⁶ مع أن قرءاً آخرين من مناطق ومدارس مختلفة قرأوا نفس الكلمة بالنصب، وهؤلاء:³⁷

- الحسن (مدنيّ، وهو مولى للأنصار).

- زيد بن علي بن الحسين (مدنيّ).

- عيسى بن عمر (من ثقيف) وكان من قومه قرشيّين من المدينة.

- سعيد بن جبير (من أزد قريش).

- محمّد بن مروان السديّ (كوفي).

أما أبو عمرو فهو تميميّ، وبنو تميم يميلون إلى الرفع أكثر ممّا يجنحون إلى النصب، والمسألة هنا متعلّقة بلهجتين إحداهما شرقية ميالة إلى الرفع أكثر ممّا هي ميالة إلى النصب، وثانيتهما غربية تجنح إلى النصب غالباً.³⁸

3.6 في المستوى الدلالي (الاختلافات الدلالية في القراءات القرآنية):

في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ...﴾³⁹ «قال أبو زيد: "قرأ" بفتح القاف، وكلاهما قال: أقرأت المرأة إذا حاضت، فهي مقرئ، وأقرأت طهرت. وقال الأخصف: أقرأت المرأة إذا صارت صاحبة حيض، فإذا حاضت قلت: قرأت. أما أبو عمرو فقال: من العرب من يسمّي الحيض قرءاً، ومنهم من يسمّي الطهر قرءاً ومن يجمعهما جميعاً، فعند أهل الكوفة: هي الحيض وعند أهل الحجاز هي الأطهار»⁴⁰. يقول المولى تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ...﴾⁴¹ «قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم "قرح" بضمّ القاف وكذلك قوله: ﴿...مَنْ بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ...﴾⁴²، والباقون بفتح القاف فهما واختلفوا على وجوه: فالأول: معناهما واحد، وهما لغتان: كالجهد والوجد، والوجد والوجد، والضعف والضعف. والثاني: أنّ الفتح لغة تهمّة والحجاز، والضمّ لغة نجد. والثالث: أنّه بالفتح مصدر، وبالضمّ اسم. والرابع: وهو قول الفراء أنّه بالفتح الجراحة بعينها، وبالضمّ ألم الجراحة. والخامس: قال ابن مقسم: هما لغتان إلا أنّ المفتوحة توهم أنّها جمع قرحة»⁴³

7. خاتمة

لئن تناولت بعض القضايا التي تخصّ المنهج الجغرافي دون سواها، فذلك اقتضار لا تقصير، ممّا يوحي بأنّ ثمة نقاط طرقها، ونقاط لم أطرقها: فأما التي طرقها لا تعدو أن تكون تتبّعاً تاريخياً لمسار تطوّره، وبسطاً علمياً نظرياً تبرز من خلاله أسس ومركزات هذا المنهج، وترتسم به معالمه، وحدوده المنهجية والمعرفية بشكلٍ مركز، وتتعاقد هاته النقاط ليثبت لدينا أنّ المنهج الجغرافي هو منهج واقعي بحث، أو بالأحرى منهج وصفي، يعدّ المكان أبرز محاوره، هذا بالإضافة إلى الزمان والنص أو اللغة

أو اللهجة محلّ الدّراسة والبحث؛ كونه يقتضي رصد ودراسة ظواهر لغوية مختلفة أو مستويات لهجية معروفة؛ منسوبة لقبائل أو مناطق جغرافية، في فترات زمنية محدّدة.

وأما النّقاط التي لم أطرقها فتعلّق رأساً، وأساساً بالجوانب التّطبيقية للمنهج

الجغرافي، وأفاق استخدامه كمنوال علمي إجرائي، فيما يلي وجيز لأهمّها:

- تشير الدّراسة اللّغوية وفق المنهج الجغرافي إلى أنّ لغة لمنطقة محدّدة كانت

موضوعاً دراسياً لوصف جزئيّ أو كليّ، غالباً ما كان في بداية أمره صوتياً أو مورفولوجياً أو

كليهما، وهذا ما يثبت وصفيّة المنهج الجغرافي.

- كان من الطّبيعي أن تتبىّ الدّراسات اللّغوية الجغرافية في بداية أمرها منهجاً

وصفياً تاريخياً لأنّ الاهتمام بالكلّ لا يأتي إلّا عقب تشريح أجزائه، والوقوف على دقائق

ووظائف كلّ عنصر؛ لأنّ هذا الكلّ الرّاهن نفسه لم يعد في وقت من الأوقات كلاً متماسكاً

إلّا بعد مروره ببناءٍ متتاليّ منتظمٍ أو مضطربٍ، وقد تصدق هذه البنية الكليّة على الظّاهرة

اللّغوية.

- لعلّ اللهجات التي تختزن زاداً لغوياً نفيساً - والذي قد لا تحويه اللّغة الرّسميّة

نفسها- تعدّ من أكثر المستويات اللّسانية حاجة إلى المنهج التّاريخيّ الوصفيّ، والمقصود

هاهنا حاجة المنهج الجغرافي إلى هذين المنهجين.

- إنّ المسح اللّغويّ لم يتمّ كلّهُ، وما تمّ فهو ناقص لأنّه لم يدرس اللهجات دراسة

علميّة عميقة لاكتشاف ما فيها من خصائص، كما لم تكتب هذه اللهجات في عصورها

المختلفة، وهذه مهمّة يتعدّر على منهج وحيد أن يظفر كليّاً بأدائها

8. مراجع البحث وإحالاته :

¹ - يراجع: عبد الجليل مرتاض، مقاربات أوليّة في علم اللهجات، دار الغرب للنشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، ط2، ص53.

² - عبد الجليل مرتاض، التّحوّلات الجديدة للّسانيات التّاريخيّة، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2001م، ص130، 129.

³ - فارديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنيّة العامّة، ترجمة: يوسف غازي ومجيد النّصر، دار نعمان، بيروت، لبنان، 1984م، ص253.

- 4 - التحوّلات الجديدة للسانيات التاريخية، ص 132.
- 5 - مقاربات أوليّة في علم اللّهجات، ص 48.
- 6 - نفسه، ص 54.
- 7 - يراجع: مقاربات أوليّة في علم اللّهجات، ص 55، 56، 58.
- 8 - يراجع: صالح بلعيد، في المناهج اللّغويّة وإعداد الأبحاث، دار هومة للطباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2005م، ص 64.
- 9 - يراجع: مقاربات أوليّة في علم اللّهجات، ص 12.
- 10 - يراجع: محاضرات في الألسنيّة العامّة، ص 231، 244، 256.
- 11 - مقاربات أوليّة في علم اللّهجات، ص 19.
- 12 - يراجع: في المناهج اللّغويّة وإعداد الأبحاث، ص 64.
- 13 - مقاربات أوليّة في علم اللّهجات، ص 78.
- 14 - نفسه، ص 76.
- 15 - نفسه، ص 76، 77.
- 16 - يراجع: مقاربات أوليّة في علم اللّهجات، ص 57.
- 17 - يراجع: نفسه، ص 58، 63.
- 18 - مقاربات أوليّة في علم اللّهجات، ص 64.
- 19 - عبد الجليل مرتاض، اللّسانيات الجغرافيّة في التّراث اللّغويّ العربيّ، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، 2003م، ص 77.
- 20 - يراجع: نفسه، ص 9، 12، 16.
- 21 - يراجع: نفسه، ص 77، 78.
- 22 - سورة الزّخرف، الآية 26.
- 23 - عبد الله بن يحيى بن مبارك اليزيدي (ت 237هـ)، غريب القرآن وتفسيره، تحقيق: محمّد سليم الحاج، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1405هـ=1985م، ص 333.
- 24 - نفسه، ص 153.
- 25 - سورة يوسف، الآية 23.
- 26 - ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت 774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمّد سلامة، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الرّياض، السّعوديّة، ط 2، 1420هـ=1999م، المجلّد 4، ص 380.
- 27 - نفسه، ص 380/4.
- 28 - نفسه، ص 83.

- 29 - يراجع: عبد القادر شاكر، البحث اللغوي وفق المنهج الوصفي (ندوة علمية)، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة عبد الرحمن بن خلدون- تيارت، الجزائر، نوفمبر 2006م.
- 30 - اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، ص 87.
- 31 - نفسه، ص 88.
- 32 - نفسه، ص 89.
- 33 - سورة المزمل، الآية 20.
- 34 - سورة هود، الآية 78.
- 35 - سورة هود، الآية 72.
- 36 - محمود بن عمر أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: خليل مأمون شيما، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 3، 1430هـ/2009م، المجلد 1، ص 588.
- 37 - اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، ص 91.
- 38 - يراجع: نفسه، ص 98.
- 39 - سورة البقرة، الآية 228.
- 40 - محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت1250م)، فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير المعروف بتفسير الشوكاني، ضبط وتصحيح: أحمد بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج 1، ص 192.
- 41 - سورة آل عمران، الآية 140.
- 42 - سورة آل عمران، الآية 172.
- 43 - أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت606هـ)، تفسير الرازي مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط 01، 1401هـ=1981م، ج 9، ص 14.

9. قائمة المصادر المراجع:

- 1- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت606هـ)، تفسير الرازي مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط 01، 1401هـ=1981م، ج 9.

- 2- ابن كثير أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 1420هـ=1999م، المجلد4.
- 3- محمود بن عمر أبو القاسم جار الله الزمخشري (ت538هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيما، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3، 1430هـ=2009م، المجلد1.
- 4- محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت1250م)، فتح القدير بين فني الزوايا والدراية من علم التفسير المعروف بتفسير الشوكاني، ضبط وتصحيح: أحمد بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ج1.
- 5- عبد الجليل مرتاض، اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003م.
- 6- عبد الجليل مرتاض، مقاربات أولية في علم اللهجات، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط2، 2002م.
- 7- عبد الجليل مرتاض، التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001م.
- 8- عبد الله بن يحيى بن مبارك الزبيدي (ت237هـ)، غريب القرآن وتفسيره، تحقيق: محمد سليم الحاج، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1405هـ=1985م.
- 9- عبد القادر شاكر، البحث اللغوي وفق المنهج الوصفي (ندوة علمية)، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة عبد الرحمن بن خلدون- تيارت، الجزائر، نوفمبر 2006م.
- 10- فارديناند دي سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان، بيروت، لبنان، 1984م.
- 11- صالح بلعيد، في المناهج اللغوية وإعداد الأبحاث، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005م.